

أزمة الطب النفسي

لقد ظل الطب النفسي كفرع من فروع الطب البشري، يعاني من خلط كبير في أذهان الناس. حول وظيفة الطبيب النفسي والخبير النفسي أو المتخصص في علم النفس، وان كان من واجب الطبيب النفسي دراسة علم النفس كأصل ثابت في تخصصه، إلا أنه ليس بالضرورة أو ينبغي للمتخصص في علم النفس، دراسة الطب. ورغم أن كلا التخصصين مكملان لبعضهما، إلا أن دور الطبيب النفسي قد غاب في ضباب الفكرة العامة عن علم النفس.

وقد فكرت في الكتابة باللغة الانجليزية كإضافة متواضعة الى تراث عظيم من الابحاث التي كتبت في هذا المجال، ولكن الذي استوقفني قلة الكتب العربية التي كتبت في مجال الطب النفسي، وان معظم الرواد الذين خاضوا في هذا المجال كتبوا عن مواضيع علم النفس النظرية والعلمية، دون الاستعانة بوجهة نظر الأطباء الذين، كثيرا ما يلجأون الى كتابة ابحاثهم باللغة الانجليزية الدوريات الأجنبية أو مخطوطات في المجال الأكاديمي.

ولقد ظل الطب النفسي معزولا عن مجال الرؤية للقارئ العربي الذي يتوق الى المعرفة العلمية والمعلومات الطبية، عن الحقائق النفسية التي تطرح في أكثر من مجال. وزاد من قناعتني هذا الزخم الهائل من التراجم العربية للمخطوطات الأجنبية، والتي هي في الأصل نتاج ولادة طبيعية لعدة عوامل بيئية وثقافية واجتماعية لهذه المجتمعات الأجنبية، والتي تمثل حقيقة هامة في مجال الطب النفسي، وهي أن الطب النفسي أكثر المجالات تأثرا

وتأثيرا بالثقافة الخاصة بالمجتمع. وعلى سبيل المثال، فاللجنة التي كونتها هيئة الصحة العالمية، من كبار الأطباء النفسانيين في العالم لدراسة أثر الثقافة المحلية في تشكيل أعراض مرض الاكتئاب، أثبت أن عامل الثقافة والتقاليد والنظرة الاجتماعية تلعب دورا كبيرا في اعطاء الصورة الخاصة بالمرض، رغم أن المرض، كظاهرة طبيعية، موجود في كل هذه المجتمعات.

وقد كان من أحد الدوافع التي شجعتني على هذه التجربة، شعوري بأن الفئة التي يجب أن تنتفع من هذه الدراسة، هي في المكان الأول موضع الدراسة وأن هذه المعلومات ستظل محجوبة عن ادراكها لفترة قد تطول كثيرا قبل أن تتمكن من الاستفادة منها ونكون قد فقدنا أحد الأهداف الأساسية في الممارسة العلمية في حقل الطب النفسي، إضافة الى ذلك، فالسؤال الذي يطرح نفسه دائما لمن نكتب ؟ يستدعي بالضرورة أن يتسع مفهومه بحيث يشمل كل أنواع المعرفة... فبقي أن تتسع نظرتنا للغاية من الكتابة في الموضوعات العلمية والنظرية... اذا كان الهدف من الكتابة تقديم أطروحة للحصول على درجة علمية أو اثراء البحث العلمي في المؤسسات الأكاديمية أو المساهمة في مؤتمرات علمية، فإن الفرد المعني هو المواطن العربي الذي يصعب عليه في كثير من الظروف مواكبة هذه التطورات العلمية باللغات الأجنبية.

لعلني لا أضيف جديدا اذا قلت أن الطب النفسي والذي لم يتجاوز عمره الزمني قرنا ونصف من الزمان، قد ظل حتى فترة قريبة بعيدا عن مجال العلوم التطبيقية وحبس الأبراج العاجية للفلسفة والمنطق، حتى أن معظم كليات الطب في معظم أقطار الوطن العربي، كانت لا تدرس مادة الطب النفسي في المنهاج المقرر، فخرجت أجيال من الأطباء حتى عهد قريب، تعاني من مشكلة المعرفة أو واجب الاعتراف بأهمية الطب النفسي في حياتنا العلمية والعملية... ولعلني لا أتجاوز الحقيقة اذا قلت أن كثيرا من الزملاء في المهنة لا يعرفون بوجه التحديد، الفارق بين وظائف عالم النفس والطبيب النفسي والعلاقة بينهما، وعندما ملأت دراسة هذا الفرع في الجامعات العربية، طغت مؤلفات علم النفس على حقائق الطب النفسي،

فظل الأخير يعاني من سلبيات الأول لأن كثرة من غير المخصصين في علم النفس قدموا جهدا كبيرا في هذا المجال أدى الى كثير من الخلط بين الحقائق العلمية والاجتهادات الفردية، وإذا أريد للطب النفسي أن يشق طريقه وسط هذا الزخم الهائل من التراث فعليه أن يصل الى عقل وقلب القارئ العربي، بأقصر الطرق وبأسرع وقت وبأقل جهد وبأفضل وسيلة، إلا وهي اللغة العربية.

ولا أريد أن يكون هذا المؤلف طرفا في الحوار الدائر في الساحة العلمية، حول تعريب المفاهيم بكليات الطب، فهذا موضوع آخر له سلبياته وإيجابياته. والمدخل اليه يقتضي مناقشته من زوايا أخرى عديدة، ولكن المبدأ لا يتعارض مع تعريب المؤلفات العلمية من ذوي الاختصاص كلما كان هذا ممكنا، وبصورة لا تفسد المعنى وتخدم الغاية المنشودة من زيادة الوعي بمشاكل الصحة النفسية لدى الفرد العربي.

لقد كانت بدايات التأليف في مجال الطب النفسي وعلم النفس، منذ عهد الرازي والفارابي وابن سينا، باللغة العربية وقد تمت ترجمات هذه المؤلفات الى اللغات الأجنبية. ولعله من باب القول المعاد التأكيد على أن مجال الطب النفسي أكثر أنواع المعارف الطبية التي لها علاقة سببية بالأسطورة والتراث الشعبي لدرجة يصعب فيها على طبيب غير عربي أن يتعامل مع مريض عربي يعاني من مشكلة نفسية... ليست فقط لصعوبة مشكلة الترجمة، كما في فروع الطب الأخرى، حيث يقوم طرف آخر بهذا الدور الوسيط خير قيام، ولكن في المحتوى الفكري والدلالة اللفظية والخلفية الثقافية التي تتداخل عناصرها في صنع قوالب الأعراض المرضية التي يطرحها المريض، ويتطلب تفسيرها وفك رموزها، معايشة تلك البيئة وتحليل هذه العناصر الى جزئيات صغيرة تتطلب من الطبيب وضعها في الشكل الكلي الذي يعطيها المعنى الخاص أو الهيئة (جستالط).

ان عنصر الثقافة المحلية أصبح يشكل عاملا هاما في تشخيص المرض النفسي والعقلي، مما جعل هيئة الصحة العالمية تقوم بعدة دراسات وابحاث

في مجال تصنيف وتسمية الأمراض العقلية والنفسية حسب الأعراض المرضية، مما أعطى التقسيم سمات اقليمية ومحلية وشعبوية، حسب طقوس كل أمة وشعب ودولة. وقد ورد ذلك في المرجع.

ولعل الموسوعة العلمية الخاصة بتصنيف الأمراض العصبية والنفسية في المجتمع المصري، أكبر دليل على خصوصية هذه العلاقة بين المرض النفسي والثقافة المحلية، كما يذكر الدكتور أحمد عكاشة استاذ الطب النفسي بجامعة عين شمس بالقاهرة.

إذا أخذنا مثلاً مرض الاكتئاب النفسي نجد أن السمات المميزة لهذا المرض تتخذ صورتها النهائية، ليس فقط من البيئة المحلية للفرد، بل من مجتمعه الصغير ومحيطه الضيق الذي يعيش ويتفاعل معه... ولعل الملاحظة العلمية الجديرة بالذكر، والتي تؤكد أن حالات الانتحار أقل شيوعاً في المجتمعات الشرقية المسلمة، قياساً بالمجتمعات الغربية، تشير إلى دور العقيدة في تحريم القتل (لا تقتلوا النفس التي حرم الله)، ودور الإيمان في تخليص الفرد من حصار الدافع الفردي للتخلص من الحياة تحت ضغط (الأنا العليا)، كما ورد في نظريات فرويد.

وإذا وقفنا أمام مرحلة المراهقة، نجدها نتيجة تفاعل بين العوامل الوراثية البيولوجية والثقافة الاجتماعية... والموقف الاجتماعي والمستوى الثقافي لدى الأسرة والمدرسة بل والحارة، نجد بعض ملامح شخصية المراهق وسلوكياته، مما يؤكد ضرورة البدء في تنقيح التراث الموروث والمستورد من التركة المثقله في مجال الطب النفسي، وبلورة المفهوم الصحيح باللغة العربية الأصيلة القاسم المشترك الأعظم بين دول المنطقة، حتى نربط حاضرنا بماضيها دون أن نفقد علاقتنا العلمية باللغات الأخرى والتي ظلت المنبع الوحيد الذي نهل منه المعرفة وتبادل بها المنفعة مع زملائنا في المهنة مع الدول الأجنبية.

لقد اقترح أحد الأطباء النفسانيين العرب الذين حضروا المؤتمر التأسيسي لجمعية الأطباء النفسانيين بالخليج العربي، والذي عقد في دولة البحرين في

ديسمبر عام/١٩٨٢م أن تكون مداورات المؤتمر باللغة العربية تجسيدا لهذا المعنى وتأكيدا بضرورة بداية تعريب موضوعات الطب النفسي ورغم الاستجابة الضمنية لهذه اللفتة، إلا أن موضوعات المؤتمر كانت قد كتبت وطبعت باللغة الانجليزية، ومنذ تلك اللحظة بدأ التفكير في التأليف باللغة العربية، دون التخلي عن الأصول العلمية في اللغات والمؤلفات الأجنبية في تناول البحث موضوع الكتابة مستشهدا بقوله تعالى (قل اعملوا وسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) صدق الله العظيم.